

إشكالية تطور الرواية التاريخية لوفاة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في ضوء المصادر المملوكية: رؤية نقدية تحليلية

مشعل بن محمد العنزي

أستاذ التاريخ المشارك، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب،
جامعة الكويت، الكويت.

سند بن أحمد عبد الفتاح

أستاذ التاريخ، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، جامعة
الكويت، الكويت.

(قدم للنشر في ٧ / ٨ / ١٤٤٦هـ، وقبل للنشر في ١١ / ٩ / ١٤٤٦هـ)

<https://doi.org/10.33948/ARTS-KSU-38-1-1>

الكلمات المفتاحية: بيبرس، القاهرة، التنجيم، الخضر، سلاجقة الروم.
ملخص البحث: يتعرض هذا البحث إلى إشكالية المصادر المملوكية حول وفاة السلطان الظاهر بيبرس (ت. ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) التي على الرغم من توفر شهود عيان من مؤرخي عصر بيبرس، وتوفر الكثير من المصادر المملوكية التي تعرضت بالدراسة لفترة حكمه؛ لكن الغموض أحاط بأسباب وفاته؛ وظهرت العديد من التساؤلات حول طريقة وفاته؛ هل كانت لأسباب صحية أم جنائية أم عسكرية أم اقتصادية أم سيكولوجية - نفسية - أم ميثولوجية - خارج نطاق العقل - متعلقة بخرافات التنجيم ونبوءات شيوخ الصوفية، أم هو خليط من كل هذه الأسباب؟ وهل كان هناك أشخاص محددین لهم مصلحة خاصة في وفاة بيبرس أم لا؟ هذا الاختلاف حول أسباب وفاة بيبرس جعل كتابات المؤرخين المماليك مختلفة وعاجزة عن تفسير الأسباب الحقيقية لوفاته على الرغم من وفرة المصادر المعاصرة لبيبرس واللاحقة عليه أيضًا. ومن جهة أخرى سيشرح البحث تطور الروايات التاريخية المتعلقة بوفاته الظاهر بيبرس بدءًا من روايات المصادر المعاصرة لبيبرس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وما لحق بهذه الروايات من زيادة أو نقصان أو تغيير في محتواها في القرون التالية حتى القرن التاسع الهجري/ القرن السادس عشر الميلادي؛ وبمعنى آخر كيف اختلفت روايات القرن السابع الهجري التي تحدثت عن وفاة بيبرس عن نظيراتها في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وهل كانت هذه الإضافات من ابتكار المؤرخين اللاحقين دون التحقق من مصادر معلوماتهم.

The Problem of the Development of the Historical Narrative of the Death of the Mamlūk Sultan Al-Zāhir Baybars in Light of Mamlūk Sources: A Critical Analytical View

Sanad Ahmed Abdul Fattah

*Professor of History, Department of History and
Archaeology, Faculty of Arts, Kuwait University,
Kuwait.*

Meshal Mohammed Al-Enezi

*Associate Professor of History, Department of History
and Archaeology, Faculty of Arts, Kuwait University,
Kuwait.*

(Received: 7/ 8/1446 H, Accepted for publication 11/ 9/1446 H)

<https://doi.org/10.33948/ARTS-KSU-38-1-1>

Keywords: Baybars, Al-Qāhir, Astrology, Al-Khidr, Seljuks.

Abstract. This research deals with the problem of Mamlūk sources about the death of Sultan Al-Zāhir Baybars (d. 676 AH/1277 AD). Despite the availability of eyewitnesses from historians of Baybars' era, and the availability of many Mamluk sources that studied his reign; the reasons for his death were surrounded by ambiguity. Many questions arose about the manner of his death; was it for health reasons, criminal, military, economic, psychological, or mythological reasons related to astrology superstitions and prophecies of Sufi sheikhs, or was it a mixture of all these reasons? The research explains the development of historical narratives related to the death of Al-Zāhir Baybars, starting with the narratives of contemporary sources of Baybars in the seventh century AH/thirteenth century AD, and what happened to these narratives in terms of additions, decreases, or changes in their content in the following centuries until the ninth century AH/sixteenth century AD.

مقدمة

أسباب اختيار الموضوع:

تُعد الدراسات الحضارية من الدراسات التي يسלט عليها الباحثون المعاصرون الضوء لفض العديد من الإشكاليات المثارة حول بعض المواضيع التاريخية؛ بعيداً عن الدراسات السياسية التي نالت قسطاً كبيراً من مصنفات المكتبة العربية، وإذا كان السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (٦٥٩-٦٧٦هـ/١٢٦١-١٢٧٧م)^(١) قد تناولته بالدراسة العديد من الأبحاث؛ لكن المكتبة العربية تكاد تخلو من دراسة مستقلة عن إشكالية وفاته التي تنوعت فيها رؤى المؤرخين المعاصرين له واللاحقين عليه، لذا أخذ الباحثان على عاتقهما دراسة هذا الموضوع نقداً وتفصيلاً في ضوء المصادر المملوكية.

تساؤلات الدراسة:

يتعرض هذا البحث إلى إشكالية المصادر المملوكية حول وفاة السلطان الظاهر بيبرس والتي بالرغم من توفر شهود عيان من مؤرخي عصر بيبرس، وتوفر الكثير من المصادر المملوكية التي تعرضت بالدراسة لفترة حكمه؛ إلا أن الغموض أحاط بأسباب وفاته؛ وظهرت العديد من التساؤلات حول طريقة وفاته؛ فتنوعت المصادر في ذكر

(١) هو السلطان المملوكي بيبرس البندقداري (٦٥٩-٦٧٦هـ/١٢٦١-١٢٧٧م)، عدّه بعض الباحثين خامس سلاطين الدولة المملوكية باعتبار شجر الدر أول سلطنة مملوكية، وعدّه بعضهم الآخر رابع السلاطين بعد حذف اسم شجر الدر من أسماء السلاطين باعتبار أن المرأة لا تعتلي عرش الحكم في الإسلام، وهو قاهر الصليبيين في معركة المنصورة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، وقاهر المغول في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وله العديد من الإنجازات على الصعيدين الداخلي والخارجي. انظر ترجمته التفصيلية في: صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تح. أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط ١، ج ١٠، (بيروت: دار إحياء التراث، ٢٠٠٠)، ص ٢٠٧-٢١٤.

الأسباب الصحية والجنائية والعسكرية والاقتصادية والسيكولوجية -النفسية- والميثولوجية -خارج نطاق العقل- المتعلقة بعلم التنجيم من ناحية^(٢) ونبوءات شيوخ الصوفية من ناحية أخرى؟ فما هي حقيقة منطقية هذه الأسباب؟ وهل كان هناك أشخاص محددین لهم مصلحة خاصة في وفاة بيبرس أم لا؟ هذا الاختلاف الوارد في المصادر حول أسباب وفاة بيبرس جعل أقوال مؤرخي الممالك مختلفة وعاجزة عن تفسير الأسباب الحقيقية لوفاته؛ وهذا ما أكده المؤرخ العيني بقوله: "أن الكلام فيه على أنواع"^(٣)، وحذا حذوه المؤرخان العمري وابن الوردي بقولهما: "واختلف في سبب موته"^(٤)، وكذلك ابن الفرات قائلاً: "واختلف أهل التاريخ والسير في سبب وفاة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالح"^(٥).

(٢) علم التنجيم يختلف عن علم الفلك وهو علم النظر في النجوم، وكان للمسلمين في علم الفلك باع كبير، حيث كانوا يستخدمونه في معرفة الطرق البرية والبحرية، وكذلك معرفة المواقيت، وقد تطور هذا العلم كثيراً في ظل الدولة الإسلامية بعد أن ترجم المسلمون مؤلفات العلماء اليونان في علم الفلك، ليظهر جيل من العلماء المسلمين البارزين الذين أثروا المكتبة العربية بالكثير من المؤلفات في هذا العلم، أما التنجيم فقد ارتبط كثيراً بادعاء معرفة الغيب وأمور الكهانة ومعرفة مصائر الناس، والتميز بين العلمين كان واضحاً منذ عصر السيرة وعصر الخلفاء الراشدين الذين حثوا على تعلم النجوم للاهتمام بها في ظلمات البر والبحر. أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة محاولة لتقيد الرواية التاريخية وفق منهج المحللين، (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٩)، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٣) بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح. محمد محمد أمين، ج ٢، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٠)، ص ١٧٤.

(٤) شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ٢٧، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ)، ص ٤٢٣؛ زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي المعروف بـ"تنمة المختصر في أخبار البشر"، ج ٢، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦)، ص ٢١٨.

(٥) ناصر الدين بن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تح. قسطنطين زريق، مج ٧، (بيروت: المطبعة الأمريكية، ١٩٤٢)، ص ٨٤.

أهداف الدراسة والمنهج المتبع:

تهدف هذه الدراسة إلى إعطاء رؤية منطقية حول أسباب وفاة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس بعدما اختلفت المصادر حول أسباب وفاته؛ لذا سوف يستعرض هذا البحث حصر أغلب الروايات الجدلية الواردة في المصادر المملوكية حول وفاة بيبرس ومحاولة تحليلها وفق المنهجين؛ أولاً: المنهج الوصفي التحليلي لمحتوى هذه النصوص، وثانياً: المنهج النقدي لشذرات النصوص المتعلقة بوفاة الظاهر بيبرس في محاولة لإعطاء جميع التفسيرات المنطقية والعقلانية التي تدعم الإجابة حول فرضية البحث الرئيسية وهي هل كانت وفاته نتيجة لأحد الأسباب سالفة الذكر في مقدمة البحث؛ أم أن وفاته اجتمعت فيها كل هذه العوامل جميعاً؛ مع الأخذ في الاعتبار أنه وبالرغم من وجود شهود عيان من المؤرخين المعاصرين لبيبرس ووفرة المصادر اللاحقة التي تحدثت عنه؛ إلا أننا لاحظنا وجود روايات مختصرة جداً لم تتجاوز بضع كلمات عن حادثة وفاته، يقابلها على الجانب الآخر روايات أخذت حيزاً كبيراً من التحليل بحيث ستعطي الباحثان -قدر الإمكان- الإجابة على تساؤلات الدراسة في محاولة بسيطة لتركيز الضوء وكشف الغموض المحيط بوفاة الظاهر بيبرس.

الدراسات السابقة:

تناولت العديد من الدراسات عصر الظاهر بيبرس وأهم أعماله وإنجازاته، إلا أن دراسة الأسباب المتعلقة بوفاة الظاهر بيبرس وتطورها في المصادر المملوكية وتحليلها لم يسبق دراسته في قاعدة البيانات التي رجع الباحثان إليها -على حد علمهما- وذلك بالرغم من تناول بعض الباحثين لطقوس الدفن والعزاء للأمرء والسلاطين، لكن فكرة البحث القائمة على اختلاف الروايات وتطورها هي فكرة أصيلة لم يُشر إليها الباحثون من قبل.

مصادر الدراسة:

يتناول البحث تطور الروايات التاريخية المتعلقة بوفاة الظاهر بيبرس بدءاً من روايات المصادر المعاصرة لبيبرس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وما لحق بهذه الروايات من زيادة أو نقصان أو تغيير في محتواها في القرون التالية حتى القرن التاسع الهجري/ القرن السادس عشر الميلادي؛ وبمعنى آخر كيف اختلفت روايات القرن السابع الهجري التي تحدثت عن وفاة بيبرس عن نظيرتها في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وهل كانت هذه الإضافات من ابتكار المؤرخين اللاحقين دون التحقق من مصادر معلوماتهم؟ فعلى سبيل المثال سنجد أن الروايات الواردة من المصادر الرسمية لحكم بيبرس والمتمثلة في المؤرخين اللذين كتبوا سيرة بيبرس وهما ابن شداد في كتابه "تاريخ الملك الظاهر"، وابن عبد الظاهر في كتابه "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" جاءت روايتهما مختلفة إلى حد كبير عن بقية المؤرخين اللاحقين، وهو ما سيطرح تساؤلات عديدة مثل: من هو صاحب الرواية الصحيحة في وفاة بيبرس؟ وهل حاول ابن شداد وابن عبد الظاهر تحميل صورة بيبرس -باعتباره ولي نعمتهما- حتى في إشكالية وفاته بتجاهلها معاً لإحدى الروايات المشهورة في موته وهي قيامه باغتيال الملك القاهر أحد أفراد ملوك البيت الأيوبي بدس السم له ثم موت بيبرس بعد شربه من نفس الكأس؛ كذلك لا يمكن إغفال الروايات المعاصرة الأخرى لهذه الفترة، مثل كتاب شافع بن علي (حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية)، وكتاب ابن العبري (تاريخ مختصر الدول)، وكتاب ابن المغيزل (ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)، إضافة إلى المصادر المملوكية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين؛ مثل: مؤلفات أبي الفدا، وابن الدواداري، وبيبرس الدوادار،

والنويري، والذهبي، والصفدي، وابن كثير، والمقرزي، وابن حجر العسقلاني، وابن تغري بردي، والسيوطي ... إلخ. التي تضمنتها الدراسة داخل متن البحث؛ ومنها يمكن تقسيم هذا البحث إلى محاور عديدة:

المحور الأول: رواية موت بيبرس بالسم وعلاقتها بعلم التنجيم والتأمر على حياة الملك القاهر الأيوبي.

المحور الثاني: الروايات الطبية والحربية وارتباطها بوفاة بيبرس.

المحور الثالث: الروايات المذهبية وارتباطها بوفاة بيبرس.

المحور الأول: روايات الموت بالسم وعلاقتها بعلم التنجيم والتأمر على حياة الملك القاهر الأيوبي.

والنويري، والذهبي، والصفدي، وابن كثير، والمقرزي، وابن حجر العسقلاني، وابن تغري بردي، والسيوطي ... إلخ. التي تضمنتها الدراسة داخل متن البحث؛ ومنها يمكن تقسيم هذا البحث إلى محاور عديدة:

المحور الأول: رواية موت بيبرس بالسم وعلاقتها بعلم التنجيم والتأمر على حياة الملك القاهر الأيوبي.

المحور الثاني: الروايات الطبية والحربية وارتباطها بوفاة بيبرس.

المحور الثالث: الروايات المذهبية وارتباطها بوفاة بيبرس.

المحور الأول: روايات الموت بالسم وعلاقتها بعلم التنجيم والتأمر على حياة الملك القاهر الأيوبي.

بادئ ذي بدء حين نتعرض لأشهر الروايات التفصيلية الواردة في المصادر المملوكية بصدده وفاة بيبرس فسنجدتها مرتبطة بعلم الفلك والتنجيم؛ وكان بيبرس من المهتمين بعلم التنجيم والمنجمين؛ فأوردت المصادر أنه كان "مولعاً بالنجوم وما يقوله أرباب التقاويم كثير البحث عن ذلك"^(٦)، وربطت المصادر وفاة بيبرس بأن ذلك كان بسبب أن "القمر انكسف كسوفاً كلياً، وانتشر بين الناس أن ذلك سيكون بسبب موت ملك عظيم"^(٧)، بل إن بعض المؤرخين كانوا أكثر تحديداً حيث ذكروا أن هذا الملك سيموت بالسم^(٨)، فحزن بيبرس كثيراً وأصابه الغم لأنه أحس أنه الملك المقصود برواية المنجمين؛ فأراد أن يُبعد تفسير ظاهرة

(٩) هو أحد ملوك الدولة الأيوبية وجده هو الناصر داوود الذي استرد بيت المقدس من أيدي الصليبيين عام ٦٣٧هـ عقب تسليمه للإمبراطور فودريك الثاني من قبل الملك الكامل، واستمر ملوك بني أيوب في مشاركة سلاطين المماليك الحكم في عهد السلطان عز الدين أيبك ثم انزوى حكمهم ليكون قاصراً على حكم بعض الولايات الشامية وبخاصة مدينة حماة، وسعى سلاطين المماليك في كسر شوكتهم دائماً خوفاً من عودتهم إلى كرسي السلطنة مرة أخرى، وهو ما جعل المؤرخين يربطون بين تخلص بيبرس من الملك القاهر الأيوبي خوفاً من زوال ملكه، خاصة وأن المصادر كانت كثيرة المدح في صفات القاهر الأيوبي. انظر ترجمته في: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٩، ص ١٢٥-١٢٦.

(١٠) شراب القمز هو لبن الخيل المخمر، وقد اعتبره البعض من المسكرات، وكانت ممالك الترك في آسيا تعتمد عليه كشراب أساسي، وإلى الآن يشربونه في أوزبكستان حيث يُعد من تراث هذه الدول.

(١١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٧٣؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ١٠؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تج. دونالد ريتشاردز (بيروت: الشركة المتحدة، ١٩٩٨)، ص ١٦٠؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٤٢٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ٢٣٣-٢٣٤؛ الذهبي، دول الإسلام، تج. حسن مروة، تقديم: محمود الأرنؤوط، ج ٢، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٩)، ص ١٩٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٩، ص ١٢٥-١٢٦؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ص ٢١٨؛ أبو الفدا إسماعيل بن عمر

(٦) قطب الدين اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٩٢)، ص ٢٧٣؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ص ٨٦.

(٧) عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج ٤، (القاهرة: المطبعة الحسينية، ب.ت)، ص ١٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٩، ص ١٢٥.

(٨) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٧٣؛ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تج. عمر عبد السلام تدمري، ج ٥٠، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣)، ص ٢٣٢؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ص ٨٦.

"يقولون... وآخرون قالوا..."^(١٧)، فمن اللافت للنظر أن جميع المؤرخين الذين ذكروا رواية وضع السم وربطوها بين وفاة بيبرس والملك القاهر هم من مؤرخي القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع والخامس عشر الميلاديين، بينما خلت مصادر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من تلك الحادثة.

الجدير بالذكر -أيضاً- أن المؤرخ ابن الفرات يروي حادثة السم بطريقة أخرى مؤداها أن الظاهر بيبرس اتفق مع بعض سُقاته أن يقوموا بسم الملك القاهر حين حضوره لمجلسه، فلما حضر القاهر أشار بيبرس برأسه إلى الساقى الذي أوصاه بدس السم فناوله كأساً من الفضة مخصصاً للملك القاهر فشربه ومات بعد خروجه من مجلس بيبرس، وبعد هذه الحادثة بثلاثة أيام جلس بيبرس لشرب القمز فسني الساقى وسقاه في نفس الكأس التي بها آثار السم، فلما أحس بالشر من الوجع استفسر من الساقى عن الكأس فلما رأى الكأس وعرف أنها الكأس المسمومة أيقن بالموت^(١٨)؛ ويرى الباحثان أنه من الصعب التصديق بهذه الرواية فليس من المنطقي بأن يظل الكأس بدون غسيل لمدة ثلاثة أيام في مجلس السلطان الذي يحوي كثيراً من الخدم القائمين على النظافة.

ومع تكرار رواية موت بيبرس بالسم داخل المصادر المملوكية وارتباطها بالملك القاهر الأيوبي ينفرد المؤرخ ابن العبري من بين مؤرخي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي والمعاصر لحكم بيبرس برواية وضع السم له دون أن يحدد أسماء الأشخاص المتهمين في ذلك؛ قائلاً إن: "أناساً من

المؤرخين مثل: بيبرس الدوادار الذي أخبرنا أن الكأس "كان مزوجاً فيما قيل بسم"^(١٩)، وعلق عليها المؤرخ الصفدي بذكر اسم الأمير الذي رواها وهو الأمير عز الدين أيدمر العلائي^(٢٠) بقوله: "بلغه ذلك من مطلع على الأمور لا يُشك في أخباره"^(٢١)، كذلك علق عليها المؤرخ ابن تغري بردي قائلاً: "قلت: وهذا القول مشهور وأظنه هو الأصح في علة موته، والله أعلم"^(٢٢)، وعلق الكتبي بقوله: "والله أعلم بحدوث ذلك"^(٢٣)، أما عبارات المؤرخ ابن العبري فجاءت تحمل في معناها الشك وعدم التأكيد بقوله:

القرشي بن كثير، البداية والنهاية، تح. عبد الله التركي، ج ١٧، (الرياض: دار هجر، ١٩٩٩)، ص ٥٣١؛ تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح. محمد عبد القادر عطا، ج ٢، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ص ١٠٣-١٠٤؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ص ٨٦؛ العيني، عقد الجمان، ص ١٧٩-١٨٠، ١٩٦؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح. محمد محمد أمين، تقديم: سعيد عاشور، ج ٣، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ب.ت)، ص ٤٦٣. تذكر المصادر أن اختيار بيبرس للقاهر تحديداً كان بسبب حسده له لشجاعته وسيرته الجميلة بين الرعية، وأن أفعاله في معركة الأبلستين فاقت كل حدود الشجاعة، أضف إلى ذلك أن بيبرس أخبره بندمه على تورطه في الحرب في بلاد الروم، فوبخه القاهر وأسمعه كلاماً لا يليق، فحقد عليه بيبرس وأضمرها في نفسه. انظر: اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ٢٧٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ٢٣٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٩، ص ١٢٥؛ المقرئ، السلوك، ص ١٠٣؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ص ٨٦.

(١٢) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٦٠.

(١٣) هو أخو الأمير أيديكن الصالحي كان محباً للعلماء والفقراء وكان الملك الظاهر يثق به لأمانته، ولآه الظاهر بيبرس نيابة السلطنة بصفد. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ١٩، ص ١٢٥.

(١٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٩، ص ١٢٦.

(١٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ب.ت)، ص ١٧٧.

(١٦) محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تح. إحسان عباس، ج ١، (بيروت: دار صادر، ١٩٧٣)، ص ١٥٤.

(١٧) أبو الفرج جريجوريوس بن العبري، تاريخ مختصر الدول، تح. أنطوان صالحاني اليسوعي، (بيروت: دار الشرق، ١٩٩٢)، ص ٢٨٨.

(١٨) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ص ٨٦-٨٧. غير أن المؤرخ الصقاعي في كتابه ذكر أن الساقى لم يكن يعلم شيئاً عن السم، وأن بيبرس وضعه في الكأس دون علمه، ويبدو رأيه أقرب للصواب لأن الساقى لو كان مشتركاً في وضع السم لكان حريصاً على حياة بيبرس. انظر: فضل الله بن أبي فخر الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، تح. جاكولين سوبله، (دمشق: المعهد الفرنسي، ١٩٧٤)، ص ٥١.

وجاءت إشارته الوحيدة المتعلقة بوفاته قاصرة فقط على مدة مرضه والتي دامت حوالي ثلاثة عشر يوماً، والتي قارنها ابن عبد الظاهر بمدة مرض السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي^(٢٢٢)، وحذا حذوه المؤرخان الذهبي والياضي في ذكر مدة مرضه^(٢٢٣)، وربطها المؤرخ ابن الدواداري بمدة مرض النبي ﷺ^(٢٢٤)، ومسألة ربط المؤرخين مدة مرض بيبرس بمدة مرض النبي محمد ﷺ^(٢٢٥)، والسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي هي نوع من التقديس له وجعله من الأبطال العظماء الذين تركوا بصمة واضحة في المجتمع الإسلامي.

أضف إلى ذلك أن هناك فريقاً آخر من المؤرخين جاءت عباراتهم مختصرة جداً بصدد الحديث عن وفاة الظاهر والقاهر على حدّ سواء؛ فاتفق المؤرخان ابن كثير والبرزالي بقولهما فقط: "أنه سُم" ^(٢٢٦) عن وفاة الملك القاهر الأيوبي،

١٤٢٣)، ص ٣٦٥-٣٦٦؛ بدر الدين ابن حبيب، *درة الأسلاك في دولة الأتراك* (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧٠ تاريخ)، ورقة ٥١؛ ابن الفرات، *تاريخ ابن الفرات*، ص ٨٧-٨٩.

(٢٢٢) ابن عبد الظاهر، *الروض الزاهر*، ص ٤٧٤؛ ونقل عنه أيضاً: ابن الفرات، *تاريخ ابن الفرات*، ص ٨٩؛ عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، تح. محمود الأرنؤوط، أخرجه: عبد القادر الأرنؤوط، ج ٧، (دمشق: دار ابن كثير، ١٩٨٦)، ص ٦١٠.

(٢٢٣) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، *العبر في خبر من غير*، تح. أبو هاجر محمد، السعيد زغلول، ج ٣، (بيروت: دار الكتب العلمية، ب.ت)، ص ٣٣٠؛ عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد الياضي، *مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان*، تح. خليل منصور، ج ٤، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ص ١٣٢.

(٢٢٤) أبو بكر بن عبد الله بن أيك بن الدواداري، *كنز الدرر وجامع الغرر*، المسمى "الدرة الزكية في الدولة التركية"، تح. هانس روبرت رويمر، ج ٨ (القاهرة: المعهد الألماني، ١٩٦٠)، ص ٢١١.

(٢٢٥) علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي، *تاريخ البرزالي المقتفي لتاريخ أبي شامة*، تح. عبد الرحمن العثيمين، بشار عواد معروف، ج ٢، (بيروت: دار ابن حزام، ٢٠١٩)، ص ٤٢.

جماعته سقوه في لبن الخليل سماً، ولما أحس عاد وسقى لمن أسقاه منه فماتا اثناهما"^(٢٢٧)، ويلاحظ الباحثان أن رواية المؤرخ ابن العبري هي عكس ما ورد في أغلب المصادر حيث يذكر أن بعض الأمراء هم الذين حاولوا اغتيال بيبرس بوضع السم، وأنه لما أحس بالسم في جسده، قام أيضاً بوضع السم لمن حاول اغتياله وماتا معاً، وهي رواية غامضة وغير محدد فيها أسماء الأمراء الذين حاولوا قتله، كذلك من غير المنطقي وما لا يقبله العقل أن يكون المرء مصاباً بالسم ويقوم والألم يعتصره ليضع السم فيمن قام بسقيه!

نجد أيضاً أن المصادر المملوكية المعاصرة لفترة حكم الظاهر بيبرس - تحديداً ابن شداد وابن عبد الظاهر - لم تتعرض لرواية السم التي حدثت بين بيبرس والقاهر الأيوبي؛ فالمؤرخ ابن شداد وهو الكاتب الرسمي لبيبرس لم يتعرض لاسم الملك القاهر داخل متن مؤلفه "تاريخ الملك الظاهر" إلا في رواية واحدة ضمن حوادث سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م حيث ذكر اسمه فقط، وأنه لم يُخصص له ترجمة ولو مختصرة في حوادث سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م وهو العام الذي توفي فيه هذا الملك الأيوبي^(٢٢٨).

أما المؤرخ ابن عبد الظاهر فقد زاد الأمر غموضاً حين لم يذكر أي روايات تتعلق بكسوف القمر أو أية تفصيلات عن مرض بيبرس وإصابته بالحمى وجاء حديثه في كتابه عبارة عن رثاء طويل لبيبرس وتعداد فضائله وصفاته الجميلة دون أن يذكر أية تفصيلات تتعلق بأسباب وفاته أو الأعراض التي كان عليها قبل وفاته والتي ذُكرت في المصادر الأخرى^(٢٢٩)،

(١٩) ابن العبري، *تاريخ مختصر الدول*، ص ٥٠٣.

(٢٠) عز الدين بن محمد بن علي بن شداد، *تاريخ الملك الظاهر*، تح. أحمد حطيط، (بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ١٩٨٣)، ص ١٣٥.

(٢١) محيي الدين عبد الله شوان بن عبد الظاهر، *الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر*، تح. عبد العزيز الخويطر، (الرياض: ب.ن، ١٩٧٩)، ص ٤٧٣-٤٧٤؛ وكذا نقل عنه نفس الرواية: شهاب الدين النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ج ٣٠، (القاهرة: دار الكتب والوثائق،

القاهر الأيوبي قائلاً: "قلت: وَهَذَا لَا يَثْبُت" (٣١)، ثم أخذ يعدد صفات الظاهر بيبرس مثل: تدينه وحرصه على أداء الصلوات الخمس في مواقيتها، وإلزام حاشيته بها، وأنه حارب المنكرات ولم يشرب الخمر قط، بل حاربها ومنع ما كان يُجمع منها من الأموال التي كانت تُقدَّر يومياً بألف دينار تقريباً، وأنه كسا الكعبة وحجرات النبي ﷺ بالحرير (٣٢)، لذا فمن وجهة نظره أن أعمال الخير ومحاربه للخمر في فترة حكمه تنسف من الأساس رواية موته بسبب شرب الخمر وسَم الملك القاهر، مع الأخذ في الاعتبار أن المصادر ذكرت أن المجلس الذي كان به بيبرس والقاهر كان الشراب فيه القمز وهو لبن الخليل المخمر ذو الفوائد الكبيرة، وقد اشتهر الأتراك بتناوله إلى الآن، بينما عدّه ابن الوردي خمراً لذا أراد أن يُبعد عن بيبرس رواية شرب الخمر وقتل القاهر.

المحور الثاني: الروايات الطبية والحربية وارتباطها بوفاة

بيبرس.

أما عن الرواية الطبية المرضية التي تناولتها أغلب المصادر المملوكية فقد اختصت بالحديث عن الأسباب الطبية التي أودت بحياة الظاهر بيبرس منها أنه حينما عاد من معركة الأبلستين ببلاد الروم (٣٣) عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م وكان بيبرس

(٣١) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ص ٢١٨.

(٣٢) المرجع السابق

(٣٣) تعد هذه المعركة آخر معارك الظاهر بيبرس قبل وفاته، وجرت أحداثها في بلاد سلاجقة الروم بأسيا الصغرى، وقد تكاتف فيها قائد سلاجقة الروم معين الدين البروانة مع خان المغول أبغا، لكن الظاهر بيبرس ألحق بهم هزيمة قاسية، وخطب له على منابر سلاجقة الروم وضربت السكة باسمه، وكان لهذه المعركة وقع سيء عند خان المغول أبغا الذي استباح مدينة قيسرية لجنوده كرد فعل انتقامي على بسط بيبرس نفوذه على بلاد سلاجقة الروم. شهاب الدين العمري، مسالك الألبصار في ممالك الأمصار، ج ٢٧، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ)، ص ٤٢١-٤٢٢.

وأورد الذهبي خبر وفاة القاهر مختصراً بقوله: "مات مسموماً" (٣٤)، واكتفى ابن واصل والذهبي وابن حبيب بالقول فقط إن وفاة الملك القاهر كانت في دمشق في أوائل سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م (٣٥)، وجاءت عبارة المؤرخ البرزالي عن وفاة بيبرس مختصرة بقوله: "ابتدأ المرض بالسلطان الملك الظاهر" (٣٦)، كذلك سار على نفس الاختصار ابن تغري بردي وابن قاضي شهبه بقولهما: "توفي بقصره الأبلق بمرجة دمشق جوار الميدان" (٣٧).

على نقيض أغلب المصادر التي اتفقت على أن الملك القاهر مات مسموماً بتخطيط من بيبرس يذكر المؤرخ اليوناني منفرداً أن القاهر الأيوبي "توفي يوم السبت خامس عشر المحرم فجأة من غير مرض"، حيث اشتكى من وجع قلبه وهو راكب على فرسه بسوق الخليل بدمشق، وكان قريباً من منزل ابنته فذهب إليها إلا أنه مات على باب دارها (٣٨)، وهذه الرواية ضد رواية التنجيم وتنسفها من الأساس حيث تُبرئ بيبرس من عملية اغتيال القاهر بالسّم.

كذلك وجدنا من بين مؤرخي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي المؤرخ ابن الوردي الذي تصدى منفرداً للدفاع عن بيبرس ومكذباً لرواية شرب الخمر واغتيال الملك

(٢٦) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الإشارة إلى وفيات الأعيان المنتقى من تاريخ الإسلام، تح. إبراهيم صالح، (بيروت: دار ابن الأثير، ١٩٩١)، ص ٣٦٧.

(٢٧) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح. حسنين محمد ربيع، سعيد عاشور، ج ٤، (القاهرة دار الكتب المصرية، ١٩٥٧)، ص ٢١٩؛ الذهبي، الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص ٣٦٧؛ ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك، ورقة ٥١.

(٢٨) البرزالي، المنتقى لتاريخ، ص ٤٥.

(٢٩) ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تح. فهم محمد شلتوت، ج ١، (القاهرة: مركز البحث العلمي، ١٩٨٣)، ص ٢٠٣؛ نقلاً عن: ابن العباد، شذرات الذهب، ص ٦١١.

(٣٠) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ٢٧٢.

المؤرخين يرجحون بأن بيبرس كان مصابًا بمرض الدوستنارية الكبدية^(٣٧)، وأنه من شدة الألم في بطنه كان يقف على قدميه ويحتضن الأمير بدر الدين بيليك الخازن دار بقوة ويصرخ "آه يا بيليك"^(٣٨) ومع اشتداد الألم وعدم فائدة العلاج ظن الأطباء أن بيبرس ربما تناول طعامًا مسمومًا، فلجأ الأطباء إلى العلاج بالجواهر كآخر الحلول لمرضه، لكن ذلك لم ينجح وظلت حالته تتدهور حتى توفي في أيام معدودة، ولخص المؤرخ العمري حالته المرضية في كلمات معدودة ومختصرة بقوله: "أما الظاهر فحصلت له حمى محرقة وتوفي"^(٣٩).

أضف إلى الروايات السابقة في وفاة بيبرس؛ هناك أيضًا رواية عسكرية جديدة انفرد بها المؤرخ ابن العمري المعاصر لبيبرس عن باقي المؤرخين كشف فيها أن الظاهر بيبرس أصيب بسهم في فخذه في معركة الأبلستين أثناء غزوه لسلاجقة الروم ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، وبقي نصل السهم في فخذه أيامًا، وفشلت محاولة الأطباء في إخراج النصل من جسده فلجأوا إلى إخراج النصل بالقوة ومع الإصرار على خروجه من جسده فارق بيبرس الحياة^(٤٠)، وعلى الرغم من أن هذه الرواية وردت عند أحد المؤرخين المعاصرين لبيبرس

كعادته محبًا للطعام فأخذ يتناول الطعام بشراهة حتى امتلأت بطنه بطعام ثقيل صعب عليه هضمه^(٤١)، ثم أخذ في شرب القمز بالقصر الأبلق^(٤٢) بدمشق طوال الليل، ثم بدأ يشعر بالمرض في صباح اليوم التالي، فأشار عليه الأمير شمس الدين سنقر السلحدار بالتقيؤ، وحاول بيبرس الأخذ بنصيحته فلم يستطع التقيؤ، فبدأ الألم يشتد عليه، وبدأت حرارة بطنه في الارتفاع، فأعطته حاشية القصر دواءً دون أخذ مشورة الأطباء لكنه لم يُشفه، فقاموا في النهاية باستدعاء الأطباء الذين استنكروا إعطائه الدواء دون مشورتهم، فأعطاه الأطباء أدوية مسببة للإسهال فلم تفلح أيضًا، ثم أعطوه دواءً آخر للإسهال فأصابه الإسهال المفرط وظل يسهل حتى أخرج دمًا، وزادت الحمى عليه، وبدأ الضعف في جسده وخارت قواه، وظن الأطباء أن كبده يتقطع من فرط الألم، وأن بيبرس أصيب بداء الاستسقاء^(٤٣)، وهذا ما جعل بعض

(٣٤) نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد بن المغيزل، *ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*، تح. عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٤)، ص ٨٨. نقل ابن المغيزل هذه الرواية عن الأمير جمال الدين بن نهار مهندار السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وكان مقرَّبًا من الظاهر بيبرس.

(٣٥) قصر الأبلق أحد قصور دمشق الشهيرة، بناه الفاطميون مقرًا للإمامة، ثم نزل فيه الظاهر بيبرس وأخذ سكنًا، وأبدع في عمارته وزخرفته على يد مهندسه إبراهيم ابن غانم، ودام الأبلق منزل السلاطين والأعيان وزوار دمشق، حتى خربه تيمورلنك وأمر بهدمه، والأبلق من البلق وتعني البياض والسواد في اللون. العمري، *مسالك الأبصار*، ج ٣، ص ٥٢٠؛ محمد بن عبد الرزاق كرد علي، *خطط الشام*، ط ٣، ج ٤، (دمشق: مكتبة النوري، ١٩٨٣)، ص ١١١.

(٣٦) ابن شداد، *تاريخ الملك الظاهر*، ص ٢٢٢-٢٢٣؛ بيبرس الدوادار، *زبدة الفكرة*، ص ١٦٠-١٦١؛ ابن الدوادار، *كنز الدرر*، ص ٢٠٨-٢٠٩؛ اليونيني، *ذيل مرآة الزمان*، ص ٢٤٥؛ مفضل بن أبي الفضائل بن العسال، *النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد*، تح. محمد كمال الدين عز الدين، ج (دمشق: دار سعد الدين، ٢٠١٧)، ص ٢٣٠-٢٣١؛ الذهبي، *دول الإسلام*، ج ٢، ص ١٩٦؛ صلاح الدين الصفدي، *الوفاي بالوفيات*، تح. أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ج ١٠، (بيروت:

دار إحياء التراث، ٢٠٠٠)، ص ٢١١؛ صارم الدين بن دقماق، *الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين*، تح. سعيد عاشور، مراجعة: أحمد دراج، (مكة: جامعة أم القرى، ١٩٨٢)، ص ٢٨٢-٢٨٣؛ ابن الفرات، *تاريخ ابن الفرات*، ص ٨٥-٨٦؛ المقرئ، *السلوك*، ج ٢، ص ١٠٣؛ العيني، *عقد الجمان*، ص ٢٤٥؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، ص ١٧٥.

(٣٧) شافع بن علي، *حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية*، تح. عبد العزيز الخويطر، (الرياض، ب. ن، ١٩٨٩)، ص ٣٣٥، ابن المغيزل، *ذيل مفرج الكروب*، ص ٨٨.

(٣٨) ابن المغيزل، *ذيل مفرج الكروب*، ص ٨٨.

(٣٩) العمري، *مسالك الأبصار*، ص ٤٢٣.

(٤٠) أبو الفرج جريجوريوس بن العمري، *تاريخ مختصر الدول*، تح. أنطوان صالحاني اليسوعي، (بيروت: دار الشرق، ١٩٩٢)، ص ٢٨٨.

منطقي وبعضها لا يقبله العقل؛ ونعني بها رواية الارتباط بين وفاة بيبرس والشيخ خضر المهراي الذي لقبته المصادر بشيخ الملك الظاهر، ولتحليل هذه الرواية علينا أولاً أن نعرف أن الهدف منها هو إثبات خضوع بيبرس لشيخ الصوفية ونعني به الشيخ خضر المهراي الذي تمكن في دولة الظاهر بيبرس نظراً لتنبؤاته العديدة التي بسببها أصبح السلطان بيبرس أسيراً له، حيث بشره أولاً بجلوسه على عرش السلطنة حين كان بيبرس هارباً في بلاد الشام من بطش المعز أيك سلطان مصر عقب مقتل أستاذه فارس الدين أقطاي^(٤٢)، وتنبأ له - أيضاً- بوقائع وأحداث كثيرة حدثت بالفعل على حد قول المؤرخين المعاصرين واللاحقين لبيبرس، فتنبأ له بسقوط مدينة أرسوف^(٤٣) في عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م^(٤٤)، ومدينة قيسارية^(٤٥) في نفس العام^(٤٦)، وتنبأ له بفتح قلعة صفد في عام

لكن الباحثين يريان أنها مناقضة لما ذكره ابن شداد مؤرخ بيبرس الرسمي الذي كان ملازماً له في أسفاره وفتوحاته وكان على صلة بالشهود العيان الذين حضروا وفاة بيبرس، ولم يتطرق إلى إصابة بيبرس على الإطلاق في معركة الأبلستين، ولو كانت الرواية صحيحة لوجدناها في مؤلفات المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة، مثل: ابن عبد الظاهر، وبيبرس الدوادار، والبرزالي، وشافع بن علي، واليونيني، وغيرهم، أضف إلى ذلك أن المصادر أجمعت على وفاة بيبرس في دمشق ومن المستحيل أن يظل نصل السهم في جسده أثناء انتقاله من بلاد سلاجقة الروم حتى عودته إلى دمشق؛ إذ يستغرق مدة طويلة وكان الأولى بهم أن يعالجوه جراحياً في بلاد الروم وهو ما لم يثبت صحته.

المحور الثالث: الروايات المذهبية وارتباطها بوفاة الظاهر

بيبرس

أما أكثر الروايات شهرة داخل المصادر المملوكية المعاصرة واللاحقة فهي رواية ميشولوجية مذهبية وردت في المصادر الصوفية^(٤٧) ونتج عنها فرضيات متعددة بعضها

(٤٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ٢٦٤-٢٦٥؛ المقرئ، كتاب المقضى الكبير، ج ٣، تح. محمد اليعلاوي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١)، ٧٥١؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٥، ص ١٧١، ٢١٨. (٤٣) مدينة تقع بين قيسارية ويافا، ووقعت في أيدي الصليبيين وظلت تحت أيديهم إلى زمن الجغرافي ياقوت الحموي انظر: شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، (بيروت: دار صادر، ١٩٧٩)، ص ١٥١-١٥٢. وظلت كذلك إلى أن استردها الظاهر بيبرس خلال فترة حكمه.

(٤٤) عز الدين محمد بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، تح. أحمد حطيط، (بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ١٩٨٣)، ص ٢٧٢-٢٧٣؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ٢٦٥؛ محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تح. إحسان عباس، ج ١، (بيروت: دار صادر، ١٩٧٣)، ص ٤٠٤-٤٠٥؛ العمري، مسالك الأبحار، ج ٨، ص ٢٦٨؛ أبو حفص عمر بن علي بن الملقن، طبقات الأولياء، تح. نور الدين شريعة، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٤)، ص ٤٣١. المقرئ، المقضى، ج ٣، ص ٧٥١.

(٤٥) بلدة من أعمال فلسطين ويُنسب لها العديد من الأشخاص، وكانت من المدن العامرة بالشام، لكنها أصبحت أشبه بالقرية منها للمدينة، وهي تختلف عن مدينة قيسرية التي تقع في بلاد الروم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢١.

(٤٦) يقال أيضاً قيسرية أو قيسرية وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال

(٤٧) الصوفيون جماعات اشتهروا بإحداث طرق في العبادة والتسك لم يشعرها الله في صلواتهم، وفي أذكارتهم، وفي خلواتهم، يقال لهم الصوفية، قال بعضهم: معناه من التصوف؛ لأنهم يلبسون الصوف، فالتصوف: هو التعبد على طريقة خاصة، لم تأت بها الشريعة؛ ولهذا غلب على المتصوفة البدع، ويسمى الزاهد الذي يحرص على التفرغ للعبادة، والزهد في الدنيا، بالصوفي، وقد صار لفظ «الصوفية» لفظاً مجماً يدخل فيه من هو صديق ومن هو زنديق، فإن من صدق الرسول فيما أخبر وأطاعه فيما أمر، إذا حقق ذلك صار صديقاً، ومن أعرض عن خبره وأمره حتى أخبر بقبض ما أخبر، وأمر بخلاف ما أمر، فإنه يصير زنديقاً. وهذا حال الملاحدة الذين يتسبون إلى الصوفية، كالفئاتين بوحدة الوجود ويسمون ذلك تصوفاً، ولذلك فهي من الفرق الإسلامية المختلف عليها. انظر: ابن تيمية، الرد على الشاذلي في حزيبه وما صنفه في آداب الطريق، تح. علي بن محمد، مراجعة: سعود بن عبد العزيز، ج ١، (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠١٩م)، ص ١٢٤.

نبوءات المعارك التي ذكرها الخضر وانتصر فيها بيبرس فعلياً فهذا قد يكون بسبب أن الشيخ الخضر كان ذكياً حيث رأى أن صفات بيبرس الحربية من الشجاعة والفروسية والخبرة العسكرية تؤهله أن يهزم أي خصم يواجهه في ميدان الحروب لذا تنبأ بانتصاراته سابقاً.

أما الرواية المثيرة والأكثر جدلاً التي وردت في كثير من المصادر المملوكية أيضاً وربطت وفاة بيبرس بالشيخ الخضر فقد وردت على موقفين:

الموقف الأول حينما غضب كبار الأمراء وعلى رأسهم الأمير بيليك الخازندار على الشيخ الخضر؛ لمكانته العظيمة في الدولة فدبروا له المكائد حتى تم اعتقاله في عام ١٢٧٢م/٦٧١هـ، ونسبوا له العديد من الاتهامات منها شرب الخمر والزنا واللواط، وجرت محاكمة الشيخ الخضر في حضور بيبرس وكبار الأمراء وتشاوروا فيما بينهم حول مصير الخضر فاتفقوا جميعاً على إعدامه؛ لأنه على علم بكل صغيرة وكبيرة داخل الدولة المملوكية، وسمع الخضر جميع النقاشات التي جرت حول مصيره، وهنا تظالعا المصادر بنبوءة قالها الخضر وربط فيها وفاته بوفاة بيبرس؛ حيث هدده قائلاً: "اسمع ما أقول لك، أنا أجلي قريب من أجلك، وبينى وبينك أيام قليلة"^(٥١)، هي أيام، ليست أشهر ولا أعوام، من

٦٦٤هـ/١٢٦٦م^(٥٢)، وكذلك تنبأ له بسقوط حصن الأكراد عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م^(٥٣)، ونتيجة لتلك التنبؤات آمن بيبرس بفضائل شيخه الخضر وطلب ملازمته له في مقر حكمه بالقاهرة؛ مما نتج عنه تمكن الشيخ خضر من أمور دولة الظاهر بيبرس، وارتفعت مكانته لديه، وأصبح مصاحباً لبيبرس في أسفاره وفتوحاته^(٥٤)، ثم زادت مكانته لدرجة أن بيبرس كان يطلعه على أسراره ويأخذ مشورته في معظم أموره بل يذهب له في منزله مرة أو مرتين في الأسبوع^(٥٥)، ثم وصلت مكانته إلى قمة ازدهارها حين منحه بيبرس السلطة المطلقة ليتصرف في الدولة كيفما شاء^(٥٦) وإذا جاز لنا أن نرد بالمنطق والعقل على

فلسطين، كانت من المدن العامرة لكنها كانت على عصر ياقوت الحموي أشبه بالقري منها للمدن، ويوجد مدينة أخرى بنفس الاسم في أملاك دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى. انظر للمزيد: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢١.

(٤٧) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٣؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٦٥؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٤٠٥؛ المقرئ، المقفى، ج ٣، ص ٧٥١؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٠٢.

(٤٨) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٦٥-٢٦٦؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٤٠٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ج ٨، ص ٢٦٨؛ ابن الملحق، طبقات الأولياء، ص ٤٣٢؛ المقرئ، المقفى، ج ٣، ص ٧٥٢.

(٤٩) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٥٩؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٦٥-٦٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، القاهرة: دار الكتب المصرية، ب.ت)، ص ١٦٢، ٢٧٦-٢٧٧؛ المنهل الصافي، مج ٥، ص ٢١٩؛ شمس الدين محمد السخاوي، المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي، تج. أحمد فريد الزبيدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥)، ص ٥١-٥٢؛ المقرئ، المقفى، ج ٣، ص ٧٥١؛ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، الطبقات الكبرى "لوائح الأنوار في طبقات الأعيان"، تج. محمد المليجي، ج ٢، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٨٩٧)، ص ٢.

(٥٠) العمري، مسالك الأبصار، ج ٨، ص ٢٦٨؛ المقرئ، المقفى، ج ٣، ص ٧٥١؛ تقي الدين أحمد المقرئ، الخطط المقرئية، ج ٤، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ)، ص ٣٠٧؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٠.

(٥١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٣؛ اليونيني، ذيل مرآة

الزمان، ج ٣، ص ٢٦٧؛ مفضل بن أبي الفضائل بن العسال، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تج. محمد كمال الدين عز الدين، ج ٢، (دمشق: دار سعد الدين، ٢٠١٧)، ص ٢٩٥؛ عفيف الدين أبو محمد عبد الله الياضي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزمان، تج. خليل منصور، ج ٤، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ص ١٤١؛ المقرئ، المقفى، ج ٣، ص ٧٥٢، ٧٥٥.

(٥٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ شهاب الدين أحمد النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣٠، (القاهرة: دار الكتب والوثائق، ١٤٢٣هـ)، ص ١٢٨؛ فضل الله بن أبي الفخر الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، تج. جاكين سوبله، (دمشق: المعهد الفرنسي، ١٩٧٤)، ص ٧٠؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢١٨؛ ابن

مات منا لحقه الآخر قريباً، فافهم هذا، ولا تتعجل الموت لنفسك" (٥٣).

أصاب الدهول ببيرس من كلام الخضر لإيانه المطلق بنبوءاته التي تحققت في سلطنته، وبدأ يرتعد خوفاً من المصير الذي حدده شيخه، فلجأ إلى كبار الأمراء يطلب منهم المشورة والرأي، فصمتوا دون أن يعطوا أي نصيحة لبيرس، وربما كان صمتهم؛ لأنهم لم يجروا على التحدث في شيء يتعلق بحياته، فما كان من ببيرس وهو المقصود بهذا التهديد على حياته إلا أن قام بتغيير الحكم على الخضر من القتل إلى السجن؛ على أن يكون السجن "في مكان منفرد بقلعة الجبل، ولا يدخل إليه إلا من يثق السلطان به غاية الوثوق، فيكون مثل من قد قُبِرَ وهو حي" (٥٤)، وبارك الأمراء حكم سلطانهم، فتم اعتقاله، وظل في محبسه طيلة خمس سنوات منذ شوال ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م حتى وفاته في المحرم عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، كان يُعامل أثناء مدة سجنه على أفضل ما يكون، وتُقدّم إليه أصناف الأطعمة الفاخرة والفواكه والخلوى والملابس ليلاً ونهاراً (٥٥)، دون أن يُقدّم أحد على المساس به حفاظاً على حياته التي هي وفق نبوءته؛ حفاظاً على حياة ببيرس -أيضاً- لمعرفة الأمراء بنبوءاته السابقة طوال

الملقن، طبقات الأولياء، ص ٤٣٢.

Holt Peter, "An Early Source on Shaykh Khadir Al-Mihrani," BSOAS 46, no.1 (1983), 36.

(٥٣) ابن الدواداري، كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٢٣؛ ابن العسال، النهج السديد، ج ٢، ص ٢٩٧-٢٩٨.

(٥٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٦٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ١٢٨؛ ابن الدواداري، ج ٨، ص ٢٢٣-٢٢٤؛ العمري، مسالك الأبصار، ج ٨، ص ٢٦٩-٢٧٠؛ أبي العسال، النهج السديد، ج ٢، ص ٢٩٨.

(٥٥) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٦٧؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٤٠٥؛ ابن الدواداري، كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٢٤؛ العمري، مسالك الأبصار، ج ٨، ص ٢٧٠؛ ابن العسال، النهج السديد، ج ٢، ص ٢٩٨.

فترة حكمه؛ والجدير بالملاحظة يرى الباحثان وفق هذه الرواية أنه لم تحدد السنة التي سيموت فيها الخضر أو ببيرس، وإنما الرابط بينهما هو موت أحدهما ثم يلحقه الآخر فقط، وكشفت هذه الرواية تحديداً تأثير العامل النفسي لدى ببيرس حيث أصبح عقله الباطن مؤمناً إيماناً تاماً بكل ما يقوله شيخه الخضر، وبات ببيرس أسيراً لوصول خبر وفاة الخضر في أي لحظة، وهذا بالتأكيد سيكون له الجانب الأكبر في تدهور حالته الصحية النفسية قبل الجسدية حين يسمع بخبر وفاة الخضر فعلياً.

الموقف الثاني تمثل في ربط حياة ببيرس بشيخه الخضر وكان أكثر تحديداً من ناحية الزمن والتاريخ، فبعد اعتقال الخضر بأربع سنوات وتحديداً في عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م نزل إليه ببيرس في محبسه بقلعة الجبل، وسأله عن نبوءته في حملته العسكرية على سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فأخبره الشيخ الخضر بأنه سيتنصر فيها "ثم يعود إلى دمشق، ويموت فيها بعد أن أموت بعشرين يوماً، وكذلك اتفق الحال" (٥٦)؛ وهنا يرى الباحثان وفق الرواية أن تاريخ الوفاة تم تحديده للطرفين زمنياً؛ مما أثار بعض التساؤلات المنطقية للباحثين حول هذه الروايات كلها للوصول إلى فرضيات منطقية لمحاولة إيجاد تفسير لوفاة ببيرس البندقداري والخضر، وبخاصة أن الخضر مات بالفعل أولاً ثم لحقه ببيرس خلال شهر تقريباً كما تذكر المصادر .

وفق الموقفين السابقين من نبوءة الخضر للظاهر ببيرس والمتعلقة بوفاته سيقوم الباحثان بالرد من خلال الفرضيات المنطقية المتاحة لدينا وما تدعمه المصادر من نصوص؛ خاصة وأن وفاة ببيرس مرهونة بوفاة الخضر وفق النبوءة؛ فعلى سبيل

(٥٦) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٣؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٤٠٥؛ ابن الملن، طبقات، ص ٤٣٢؛ المقرئ، المقفى، ج ٣، ص ٧٥٢؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٠٣؛ ابن العماد، شذرات، ج ٧، ص ٦١٣.

بيبرس هو الذي أمر بإعدامه خلال حملته على آسيا الصغرى^(٥٦)، وهذا الرأي من وجهة نظر الباحثين -وفق نبوءة الخضر- يطرح فرضيات عديدة؛ بسبب أن الخضر لم تصدر منه أية أفعال قبيحة في فترة حبسه في حق الظاهر بيبرس، بل إنه تنبأ له بالظفر في حملته العسكرية على سلاجقة الروم، فهذا الرأي يفرض علينا أن نتساءل لماذا لم يقم بيبرس بإعدامه في عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م بعد أن اتفق والأمراء على التخلص منه؟ والإجابة بكل منطقية هي أن بيبرس هو أكثر الأشخاص الذي نالته السعادة من نبوءات هذا الشيخ، فكيف يقدم على قتله وهو يعلم أن حياته مرتبطة بحياته حسباً أوحى إليه في جلسة محاكمته، وخير شاهد على ذلك ما روته بعض المصادر من أنه حينما عاد إلى دمشق من غزوة الأبلستين ضد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وصلت إليه البريدية بخبر وفاة الخضر فأصابته حالة من الصراخ والنحيب؛ "مرددًا: مات"، ثم قام من مجلسه دون أن يكمل قراءة الكتاب، وبدأ العامل النفسي والجسدي ينال من بيبرس حينذاك وظل في تدهور حتى مات^(٥٧)، أما منطقية أن بيبرس هو الذي أمر بإعدامه فقائمة على فرضية واحدة فقط، تمثلت في إيمان بيبرس بشيخه واعتقاده في نبوءاته، فإن النصر في حملته العسكرية على سلاجقة الروم، كان يعني أن أمام بيبرس -وفق نبوءته- أيام معدودة فقط؛ إذ تنبأ له بالنصر ثم يعود ويمكث عشرين يومًا ويموت بعدها؛ مما جعل بيبرس لا ينتظر قدره وعجل بموت شيخه، وتأكيداً لهذه النبوءة ذكر المؤرخ ابن شداد أنه سمعها تحديداً "من الأمير سيف الدين قشتمر العجمي من لفظه والعهد عليه"^(٥٨).

الغريب في رواية وفاة الشيخ الخضر ومن بعده الظاهر

المثال يذكر بعض المؤرخين أن صاحب بهاء الدين بن حنا اتفق سراً مع الملك السعيد بركة خان على التخلص من الشيخ خضر، وانتهازا فرصة غياب بيبرس في حملته على سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وسلطاً عليه من قام بخنقه، معلقين على الخبر بعبارة "والله أعلم"^(٥٩)، لكن هذا الرأي قد يبدو بعيد المنال لأسباب عديدة؛ أولها: معرفتها السابقة بنبوءات هذا الشيخ طوال فترة حكم بيبرس، ومن ثم لم يكن ليحازها بحياة السلطان بعد نبوءته وتهديده الأخير لبيبرس أثناء محاكمته بعد اعتقاله عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م، ثانيها: لا يوجد من الأسباب المنطقية في فترة اعتقاله التي امتدت خمس سنوات ما يعجل بوفاته، خاصة وأن المصادر المملوكية أثناء فترة حبسه لم تذكر الشيخ خضر من قريب أو بعيد، وثالث الأسباب: أنها لو أرادا التخلص منه في فترة حبسه لتسنى لهم ذلك بكل بساطة في أثناء السنوات الخمس التي أعتقل فيها؛ لأن بيبرس كان كثير التنقل والسفر ما بين أرجاء دولته، والسبب الوحيد المنطقي المؤدي إلى صحة رواية قتل الخضر على يد صاحب والملك السعيد هو أن يكون الملك السعيد قد طمع في استعجال السلطنة، وأنه كان مثل أبيه بيبرس لديه الإيمان المطلق في نبوءات هذا الشيخ، وبناء عليه فحينما يقدم على قتل الخضر وفق النبوءة سيموت بيبرس بعده بأيام معدودة وينال الملك السعيد عرش السلطنة رسمياً بوصفه ولياً للعهد، خاصة وأن المصادر تخبرنا بالفعل أن اثنين من الأمراء وصلوا بالخبر من دمشق إلى الملك السعيد بقلعة الجبل بالقاهرة ففرح ومنح كل واحد منهما مبلغ خمسة آلاف درهم^(٥٨).

أيضاً أثار العيني رأياً إشكالياً آخر مؤداه أن الظاهر

(٥٧) ابن الدواداري، كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٢٤؛ ابن العسال، النهج السديد، ج ٢، ص ٢٩٨؛ بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح. محمد محمد أمين، ج ٢، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٠)، ص ١٠٥.

(٥٨) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٢٤.

(٥٩) العيني، عقد الجمان، ج ٢، ص ١١٠.

(٦٠) ابن الدواداري، كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٢٤؛ ابن تغري بردي، المنهل

الصافي، مج ٥، ص ٢٢٠.

(٦١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٣.

أرسل البريد على وجه السرعة إلى قلعة الجبل بالقاهرة لإطلاق سراح شيخه الخضر وإحضاره إليه، لكن تخبرنا المصادر أن البريد وصل بعد فوات الأوان^(٦٣)، وتعددت الأسباب التي أدت إلى عفو بيبرس عن شيخه فذكر ابن الدواداري السبب الذي من أجله أطلق بيبرس سراح شيخه؛ حيث "تذكره بمنام أفزعه"^(٦٤)، بينما أورد المناوي: "أن الخضر ظهرت له جمرة أكلت ظهره، فأمر بإطلاق سراحه وتكريمه"^(٦٥)، وهذا الرأي يُدخلنا في حقيقة الصراع الدائر بين الأمراء، ففي الحقيقة إذا وصل خبر إطلاق سراح الشيخ الخضر إلى كبار الأمراء فسيكون هذا أسوأ خبر يتلقونه؛ لأنهم يعرفون أن إطلاق سراحه يعني عودته إلى سابق نفوذه وسيطرته على بيبرس ومن ثمَّ تهديد في المقام الأول لحياتهم؛ لأنهم هم من دبوا له المؤامرات حتى أُعتقل، وحينئذٍ لن يترك الشيخ الخضر ثأره منهم وسيحاول التنكيل بهم، لذا أسرعوا في تنفيذ حكم الإعدام فيه، ثم أرسلوا للظاهر بيبرس يعتذرون أن البريد وصل بعد وفاته.

وكرر فعل على روايات مؤرخي الصوفية الذين رفعوا بها من مكانة الشيخ الخضر وربطوا وفاته بوفاة بيبرس؛ جاءت رواية مؤرخي أهل السنة التي رفعوا من بها -أيضاً- من مكانة الشيخ محيي الدين النووي^(٦٦) التي صوروا بها استجابة

(٦٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٦٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٢٤٣؛ العمري، مسالك الأبصار، ج ٨، ص ٢٧٠؛ صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تح. أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج ١٣، (بيروت: دار إحياء التراث، ٢٠٠٠)، ص ٢٠٦؛ الصقاعي، تالي وفيات الأعيان، ص ٧٠؛ المقرزي، المقفى، ج ٣، ص ٧٥٤؛ المقرزي، الخطط، ج ٤، ص ٣٠٨؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٠٣.

(٦٤) ابن الدواداري، كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٢٤.

(٦٥) زين الدين محمد المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تح. محمد أديب الجادر، ج ٣، (بيروت: دار صادر، ب.ت)، ص ٢٧.

(٦٦) هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن

بيبرس؛ أن بيبرس كان يعلم قبل خروجه إلى حرب سلاجقة الروم أنه سيتصر عليهم، ثم يعود إلى دمشق حيث تدرکه الوفاة بعد شيخه بعشرين يوماً-وفق نبوءته- وهذا ما يستدعي أن نتساءل أولاً ألم يكن في إمكان بيبرس أن يمنع نفسه من الخروج في تلك الحملة التي تتوقف عليها حياته؟ أو بما أنه خرج فعلياً أليس من الأفضل له أن يتكبد الخسارة في تلك الحرب؛ لأن نهاية حياته متمثلة في النصر عليهم؟ وجميع تلك الفرضيات والتساؤلات لو تمت لهدمت نبوءات الشيخ الخضر من الأساس.

غير أن الرد على تلك الفرضية الأخيرة تتمثل في أقوال المصادر حول شخصية الظاهر بيبرس الذي لم يعرف معنى الجُبْن، أو الذي يهاب الموت خاصة في أوقات الحروب؛ يشهد بذلك ما مر به من الوقائع الحربية الكثيرة منذ معركة المنصورة ضد لويس التاسع ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، ثم حروبه ضد المغول في عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وما تلاها، وضد القلاع الصليبية في فترة حكمه؛ بالإضافة إلى ذلك أنه كان خفيف الحركة، جباراً في الأسفار والفتوحات، دائم التنقل بين أنحاء دولته صيفاً وشتاءً^(٦٧)، وشخصية بهذه القوة من المستحيل أن ترفض أمراً يحفظ حدود الدولة المملوكية ضد سلاجقة الروم والمغول، والخروج لحربهم حتى وإن كانت حياته متوقفة على نبوءات شيخه!

بالإضافة إلى ما سبق -أيضاً- لا يجب أن نُغفل أحد الآراء الواردة في المصادر المملوكية التي تحدثت عن عفو شامل من بيبرس تجاه شيخه؛ فتروي المصادر أن بيبرس

(٦٧) علي بن محمد الفيومي، نثر الجمان في تاريخ الأعيان، (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٤٦ تاريخ)، ج ٥، ورقة ٧٠؛ تقي الدين أحمد المقرزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح. محمد عبد القادر عطا، ج ٢، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ص ١٠٢؛ محمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، (بولاق: مطبعة الكبرى الأميرية، ١٨٩٣)، ص ١١٠.

بمثابة رواية لمؤرخي السُّنة تُظهر بها فضائل أحد الشيوخ الصالحين في بلاد الشام، الذي كان معارضاً لبيبرس - على النقيض من الشيخ الخضر - وانحاز الشيخ النووي إلى صف عوام الشعب ضد سياسات الظاهر بيبرس المالية، لذا لجأوا إليه طلباً للدعاء على بيبرس بزوال دولته بصفته من الشيوخ الصالحين وأحد الأولياء، وتمضي رواية المؤرخ ابن الفرات في استجابة الله لدعاء الشيخ النووي ويموت بيبرس تبعاً لذلك؛ ومن ثم أصبحنا أمام فريقين من مؤرخي المذاهب الإسلامية؛ كل فريق يحاول أن يستخدم شيوخه بوصفه أحد الأسباب الرئيسة في وفاة الظاهر بيبرس، وذلك للتأثير على العوام واجتذابهم لصفوفهم.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى بعض النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: أن الرواية التاريخية عن وفاة الظاهر بيبرس اختلفت محتواها في المصادر المعاصرة لبيبرس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي عنها في القرون التالية؛ فجاءت روايات مؤرخي بيبرس الرسميين المعاصرين له، مثل ابن شداد وابن عبد الظاهر متضاربة عما جاء في روايات مؤرخي القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين؛ حيث طرأت عليها زيادات في محتواها، بل تغيرت كليةً في بعض الأحيان؛ وهو ما يجعلنا نرجح أن ابن شداد وابن عبد الظاهر أرادا تجميل وفاة بيبرس الذي كان يغدق عليهم الهدايا والأموال؛ فلم يشيروا إلى أي روايات توضح ظلم بيبرس لرعيته وقيامه بفرض الأموال على الرعية سواء مسلمين أو مسيحيين أو يهود؛ مما جعلهم يتمنون موته وزوال دولته، كذلك خلت رواياتهم من أية شبهة جنائية أو حربية أو أي رواية لها صلة بالتنجيم، واقتصرت فقط على ذكر مرضه وتعداد فضائله، ويرجح الباحثان أن هذا التضارب في الأخبار والروايات المتعلقة بمرض بيبرس ووفاته كان مرجعه إلى خوف الأمراء منه،

الله لدعائه على بيبرس بزوال دولته؛ حيث ذكروا أن وفاة الظاهر بيبرس ترجع إلى العديد من السلبيات المتعلقة بظلمه ومصادرته أموال الرعية؛ حيث انفرد المؤرخ ابن الفرات بذلك قائلاً: "أن بيبرس كان كثير المصادرات لدواوينه، كثير الجبايات من رعيته"؛ حيث سلط وزيره بهاء الدين بن حنا على المصريين فظلمهم حتى مات كثير منهم تحت طائلة العقوبات ومصادرة أملاكهم، أما النصراني واليهود فتم جباية أموال الجزية منهم أضعافاً مضاعفة بعد أن حفر لهم حفرة ضخمة وأوقدها بالنار وهددهم بالحرق أحياء، كذلك تعرض أهل مدينة دمشق للظلم وجباية الأموال من بيبرس؛ فقبل ذهابه إلى سلاجقة الروم في آسيا الصغرى عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م أمر بيبرس أن يدفع أهل دمشق أموالاً طائلة بهدف تجهيز الجيش للحرب، لكن الشيخ محيي الدين النووي تصدى له فهادنه بيبرس إلى حين، وما إن عاد من غزو الروم منتصراً حتى فرض على أهل دمشق مبلغ ٢٠٠ ألف درهم، ومن برّها ٣٠٠ ألف درهم، ومن قرأها ٣٠٠ ألف درهم، ومن جميع البلاد القبلية مليون درهم، فانتشر الحزن بين أهل دمشق، وتمنوا زوال دولة الظاهر بيبرس واشتكوا إلى الشيخ محيي الدين النووي الذي كان كثير الورع والزهد فقيل أنه دعا عليه، "فما اكتملت جباية نصف الأموال حتى مات الملك الظاهر"^(٦٧)، ويرى الباحثان أن هذه الرواية هي

شرف بن مُرِّي بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام، النووي نسبة إلى نوى، وهي قرية من قرى حوران في سورية، ثم الدمشقي الشافعي، شيخ المذاهب وكبير الفقهاء في زمانه، ولد في عام ٦٣١هـ وولد مع أبيه إلى مدينة دمشق لتحصيل العلم، وسكن في المدرسة الرواحية الملاصقة للجامع الأموي، له كثير من المؤلفات في الفقه والحديث والمناسك، وتلقى العلم على أيدي كبار العلماء في عصره، وتوفي في نفس السنة التي توفي فيها بيبرس البندقداري ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ط ١٥، ج ٨، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢)، ص ١٤٨-١٥٠.

(٦٧) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ص ٨٤-٨٥.

لكشف الغموض حول العديد من الموضوعات التاريخية الواردة في متون المصادر الإسلامية.

ثانيًا: التوصية بالتوسع في توظيف التكنولوجيا في البحث عن المعلومات الواردة في المصادر والمتوفرة بكثرة على شبكة الإنترنت؛ وذلك للإحاطة بشمولية الموضوع والتعرض لأكبر عددٍ من المصادر، وذلك لن ييسر إلا إذا كان الباحث ملماً بالتعامل مع التكنولوجيا والمكتبات المتاحة مجاناً على صفحات الإنترنت.

ثالثًا: توجيه الباحثين نحو الموضوعات الحضارية ذات الإشكاليات المثارة بعيداً عن الدراسات السياسية التي امتلأت بها المكتبة العربية، حتى لا تكون الموضوعات هي تكرار لما سبق ذكره.

رابعًا: تشجيع المجلات العربية وأوعية النشر العلمي بالجامعات العربية التي تتبنى قبول ونشر أي من الموضوعات الحضارية التي تمثل إضافة إلى المكتبة العربية.

المصادر والمراجع العربية:

ابن الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيك، *كنز الدرر وجامع الغرر، المسمى الدرّة الزكية في الدولة التركية،* تح. هانس روبرت رويمر، ج ٨، القاهرة: المعهد الألماني، ١٩٦٠م.

ابن العبري، أبو الفرج جريجوريوس بن هارون الملطي، *تاريخ مختصر الدول،* تح. أنطوان صالحاني اليسوعي، بيروت: دار الشرق، ١٩٩٢م.

ابن العسال، مفضل بن أبي الفضائل، *النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد،* تح. محمد كمال الدين عز الدين، دمشق: دار سعد الدين، ٢٠١٧م.

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد. *شذرات الذهب في أخبار من ذهب،* تح. محمود الأرناؤوط، أخرجه: عبد

لدرجة أنه في حال مرضه كان لا يُسمح لأحد بالدخول عليه إلا بإذنه، وهذا بالطبع أحاط حالته الصحية ووفاته فيما بعد بالغموض.

ثانيًا: أنه على الرغم من ازدهار التدوين التاريخي وثراءه في الفترة المملوكية عامة وعصر الظاهر بيبرس خاصة؛ لكن المصادر لم تعطنا رواية واضحة ومؤكدة عن طبيعة وفاة بيبرس، بل تعددت الروايات والصور الواردة حول هذا الموضوع؛ وتنوعت التفسيرات حول وفاته، منها ما هو متعلق بالتسميم والفلك، فأدى لاغتيال الملك القاهر أحد أفراد الأسرة الأيوبية، ومنها ما هو متعلق بالمرض والسم، ومنها ما هو عسكري بإصابته بسهم في معركة الأبلستين، ومنها ما هو اقتصادي متعلق بظلم بيبرس لرعيته، ومنها ما هو ميثولوجي غلب عليه الطابع الأسطوري خاصة فيما يتعلق بعلاقته بالشيخ الخضر وتنبؤاته التي يبدو واضحاً أن الرواية الأخيرة هي من تأثير مؤرخي الصوفية الذين أرادوا إظهار قدسية الشيخ الخضر، وأن وفاة بيبرس كانت عقاباً له لقيامه باعتقال الخضر عام ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م، الأمر الذي أدى إلى خلق رواية مضادة عند مؤرخي أهل السنة مفادها أن بيبرس توفي بسبب دعاء الشيخ محيي الدين النووي عليه بعد ظلمه لأهل دمشق بفرض الضرائب الباهظة عليهم، ويبدو واضحاً أن هذه العوامل جميعاً أثرت نفسياً على بيبرس وأدت دوراً كبيراً في تدهور حالته الصحية التي لم تستمر سوى أياماً معدودة حتى قضى نحبه تاركاً المصادر بعده لا تتفق على رواية واحدة مؤكدة حول كيفية وفاته، وهو ما يوضح أن بيبرس فرض سوراً سريعاً حول حياته الخاصة بحيث لا يعلم الأمراء عنها شيئاً سواً في حياته أو بعد مماته.

توصيات الدراسة:

أولاً: ضرورة توجيه الباحثين إلى المناهج العلمية الحديثة

في دولة الأتراك، القاهرة: مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧٠ تاريخ.

ابن دقاق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تح. سعيد عاشور، مراجعة: أحمد دراج، مكة: جامعة أم القرى، ١٩٨٢م.

ابن شداد، عز الدين محمد بن علي، تاريخ الملك الظاهر، تح. أحمد حطيط، بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ١٩٨٣م.

ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبد الله بن نشوان. الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح. عبد العزيز الخويطر، الرياض: ب. ن، ١٩٧٩م.

ابن علي، شافع. حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تح. عبد العزيز الخويطر، الرياض: ب. ن، ١٩٨٩م.

ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي، البداية والنهاية، تح. عبد الله التركي، ج ١٧، الرياض: دار هجر، ١٩٩٩م.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح. حسنين محمد ربيع وسعيد عاشور، ج ٤، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٧م.

أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، عدد الأجزاء ٤، القاهرة: المطبعة الحسينية، (ب.ت).

البرزالي، علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف، تاريخ البرزالي المقتفي لتاريخ أبي شامة، تح. عبد الرحمن العثيمين وبنشار عواد معروف، ج ٢، بيروت: دار ابن حزام، ٢٠١٩م.

الدوادار، بيبرس، ركن الدين بيبرس المنصوري الخطائي، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح. دونالد ريتشاردز، بيروت: الشركة المتحدة، ١٩٩٨م.

القادر الأرنؤوط. ج ٧. دمشق: دار ابن كثير، ١٩٨٦م.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ ابن الفرات، تح. قسطنطين زريق. مجلد ٧، بيروت: المطبعة الأمريكية، ١٩٤٢م.

ابن المغيزل، نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد، ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح. عمر عبد السلام تدمري، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٤م.

ابن الملقن، أبو حفص عمر بن علي بن أحمد. طبقات الأولياء، تح. نور الدين شريفة، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٤م.

ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر، تاريخ ابن الوردي المعروف بـ "تتمة المختصر في أخبار البشر"، ج ٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.

ابن إياس، محمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، بولاق: مطبعة الكبرى الأميرية، ١٨٩٣م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف. الدليل الشافي على المنهل الصافي. تح. فهيم محمد شلتوت. عدد المجلدات ٢. القاهرة: مركز البحث العلمي، ١٩٨٣م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح. محمد محمد أمين، تقديم: سعيد عاشور. عدد الأجزاء ٧، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، (ب.ت).

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، القاهرة: دار الكتب المصرية، (ب.ت).

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم، الرد على الشافلي في حزيه وما صنفه في آداب الطريق، تح.

علي بن محمد، مراجعة: سعود بن عبد العزيز، ج ١، بيروت: دار ابن حزم، ٢٠١٩م.

ابن حبيب، بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر، درة الأسلاك

العمري، أكرم، عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين، الرياض: مكتبة العبيكان،

٢٠٠٩م

العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ٢٧، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ.

العيني، بدر الدين محمود. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح. محمد محمد أمين، عدد الأجزاء ٤، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٠م.

الفيومي، علي بن محمد بن علي المقرئ، نشر الجمان في تاريخ الأعيان، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٤٦ تاريخ، ج ٥، ورقة ٧٠.

الكتبي، محمد بن شاکر بن أحمد. فوات الوفيات والذيل عليها، تح. إحسان عباس، ج ١، بيروت: دار صادر، ١٩٧٣م.

کرد علي، محمد بن عبد الرزاق، خطط الشام، ط ٣، ج ٤، دمشق: مكتبة النوري، ١٩٨٣م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. الخطط المقريزية، ج ٤، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. السلوك لمعرفة دول الملوك، تح. محمد عبد القادر عطا، ج ٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، كتاب المقفى الكبير، تح. محمد اليعلاوي، ج ٣، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١م.

المنائي، زين الدين محمد عبد الرؤوف، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تح. محمد أديب الجادر، ج ٣، بيروت: دار صادر، (ب.ت).

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، نهاية

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. دول الإسلام، تح. حسن مروة، تقديم: محمود الأرنؤوط، ج ٢، بيروت: دار صادر، ١٩٩٩م.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، الإشارة إلى وفيات الأعيان المنتقى من تاريخ الإسلام، تح. إبراهيم صالح، بيروت: دار ابن الأثير، ١٩٩١م.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، العبر في خبر من غبر، تح. أبو هاجر محمد والسعيد زغلول، ج ٣، بيروت: دار الكتب العلمية، (ب.ت).

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح. عمر عبد السلام تدمري، ج ٥٠. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣م.

الزركلي، خير الدين. الأعلام، ط ١٥، ج ٨، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد، المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي، تح. أحمد فريد المزيدي، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م.

الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، الطبقات الكبرى "لواقح الأنوار في طبقات الأخيار"، تح. محمد المليجي، ج ٢، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٨٩٧م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. الوافي بالوفيات، تح. أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، عدد الأجزاء ٢٩، بيروت: دار إحياء التراث، ٢٠٠٠م.

الصقاعي، فضل الله بن أبي الفخر، تالي كتاب وفيات الأعيان، تح. جاكولين سوبله، دمشق: المعهد الفرنسي، ١٩٧٤.

الأرب في فنون الأدب، ج ٣٠، القاهرة: دار الكتب
والوثائق، ١٤٢٣هـ.

اليافعي، عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد، *مرآة الجنان*
وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تح.
خليل منصور. ج ٤، بيروت: دار الكتب العلمية،
١٩٩٧م.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي، *معجم*
البلدان، ج ٤، بيروت: دار صادر، ١٩٧٩م.

اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد، *ذيل مرآة*
الزمان، ج ٣، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٩٢م.

المراجع الأجنبية:

Holt, Peter. "An Early Source on Shaykh Khadir
Al-Mihrani." *BSOAS* 46. No.1 (1983).

